المحاضرة الثانية

الحالة العامة قبل البعثة:

1-الوضع الديني: اعتنق العرب دين إبراهيم (التوحيد) عليه السلام بمجيء سيدنا إبراهيم إلى مكة و ترك فيها هاجر و ابنه إسماعيل عليه السلام ، قال تعالى :" ربنا أني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم و ارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون "[11] ، فأجاب الله دعوته، و أصبح المكان الذي ترك فيه إبراهيم زوجته وولده عابرا بعد أن يسر الله لهاجر ماء زمزم و جاءت قبيلة عربية "جرهم" من اليمن فاستوطنت مكة بإذن من أم إسماعيل عليه السلام[12]، و كان الدين السائد هو دين إبراهيم الخليل عليه السلام، وبقي الأمر على ذلك حتى بدأ الانحراف عن التوحيد إلى الشرك و عبادة الأصنام ، و ذلك عن طريق رجل يدعى "عمرو بن لحي " الذي كانت له صداقة في الشام فذهب لزيارتهم فوجدهم يتخذون أصناما يعبدونها، فقال ما هذه ، قالوا: هذه أصنام نعبدها تقربنا إلى الله نستنصرها فتنصرنا و نستمطرها فتمطرنا فأخذ منهم صنما و جاء به إلى مكة حينها بدأت عبادة الأصنام تنتشر في ربوع مكة[13].

فكانت اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى " في الطائف ، ويثرب ، ومكة ثم صار لكل منطقة صنم ، وقد اتخذوا لها بيوتا كانوا يعظمونها كتعظيم الكعبة، وتهدى لها كما يهدى للكعبة[14] ، وقد وجد صلى الله عليه وسلم في الفتح (360 صنما) داخل الكعبة وحدها ، و أبدعوا في صناعتها من الخشب، والحجر، والمعدن، و أحيانا التمر.

فأصبح الشرك هو السائد يعبدونها، و يتقربون إليها بالذبائح ، يلتمسون منها الحاجات وكثرت العادات الشركية كالعرافة والسحرة والكهنة، و التطير " فكانوا إذا مر الطير من اليمين

---

[11]-إبراهيم 37

[12] صحيح البخاري: كتاب الانبياء 3364 -3365

[14]-ابن هشام: 1-83

أكملوا طريقهم ومشروعهم، و إذا جاء الطير من جهة الشمال أحجموا ، وكانوا يعملون بالأزلام التي ذكرها القرآن في سورة المائدة[15] .

وهكذا غاب التوحيد وحل محله الشرك : سجود لغير الله ، ركوع لغير الله ، دعاء لغير الله وذبح لغير الله بقي شيء واحد وهو الكعبة فملؤوها أصناما، و اتخذوا أماكن أخرى كعبة يطوفون حولها ، حولها وغيروا حتى الطواف و التلبية، فصاروا يطوفون عراة وهم يصفقون ويصفرون وإذا لبوا ردّدوا:" لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك إلا شريكا تملكه وما ملك " .

وهكذا فعل الشيطان فعلته وكان لابد من داع يحيي عقيدة التوحيد من جديد وهو محمد صلى الله عليه وسلم .

– أما الديانتين الكبيرتين (المسيحية واليهودية) فكانا على أسوء حال من التحريف ، وتحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم الله ، وكان اليهود جل عملهم كسب المال وشراء السلاح وإيقاد الفتن بين القبائل، وإدعاء حصر النبوة عندهم

– **أما في الجانب الاجتماعي و العلاقات الاجتماعية** : فلم تكن أحسن حالا من الوضع الديني فالدين له تأثير كبير على الحياة الاجتماعية، كلما كان الدين متينا صحيحا في نفوس الناس قوم الاعوجاج الأخلاقي و الاجتماعي ، وكلما كان التدين منحرفا كانت الأخلاق و العلاقات كذلك ومن ذلك أن العرب كان التقاتل بينهم مستمر و لأتفه الأسباب، فتدوم الحروب طويلا والأمثلة مشهورة حرب البسوس وغيرها ، وعرفوا بالعصبية ليقاتل لأجل القبيلة ظالمة أو مظلومة

– وضع المرأة لا يخفى على أحد من الاحتقار و الإذلال والوأد، وقد سجل الله عز وجل هذا في مواضع منه كتابه منها قوله تعالى: " وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم"[16] النحل .. وقوله:" وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت " [17]

---

[15]-تاريخ اليعقوبي:1-259-260
[16]- النحل58
[17]-التكوير8

- **العلاقات الأسرية :** ممثلة في الزواج كانت أيضا تشهد انحرافا و طرقا غريبة للزواج، حديث عائشة كان الزواج على أوجه زواج الناس اليوم ، زواج البضع ، زواج البغايا ، زواج الاستبضاع، زواج الشغار، كان الجمع بين الأختين، و الزواج بامرأة الأب .

فكانت نتيجة هذا اختلاط الأنساب وضياعها وامتهان للمرأة وكرامتها .

- **في المطعومات :** كانوا يحرمون على أنفسهم أنواعا من الحيوانات كالإبل، وانتشرت الخمور بينهم والفواحش .

- **أما في الجانب السياسي :** فلم يكن للعرب شأن يذكر كانت هناك دولتين (الفرس و الروم) وكان العرب لعبة بينهم أحيانا يستغلهم الفرس لضرب الروم و العكس[18].

- على أن هذه الصورة القائمة للوضع العام لا ينفي أن العرب كانت فيهم بعض الخلا ل الحسنة عمل الإسلام بعد ذلك على تقويمها و تعزيزها (الكرم ، الشجاعة ، الغيرة ، الأنفة ، الاحترام ،الإيفاء بالعهود و الوعود .....) [19] .

حياته صلى الله عليه وسلم قبل البعثة

الوقائع التاريخية[20]:

تدلنا الأخبار الثابتة عن حياته صلى الله عليه وسلم قبل البعثة على الحقائق التالية:
1 – أنه ولد في أشرف بيت من بيوت العرب، فهو من أشرف فروع قريش، وهم بنو هاشم، وقريش أشرف قبيلة في العرب، وأزكاها نسبا وأعلاها مكانة، وقد روي عن العباس رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن الله خلق الخلق فجعلني من خيرهم من خير فرقهم، وخير الفريقين، ثم تخير القبائل، فجعلني من خير قبيلة، ثم تخير البيوت، فجعلني من خير بيوتهم، فأنا خيرهم نفسا، وخيرهم بيتا»، ولمكانة هذا النسب الكريم في قريش لم نجدها فيما طعنت

[18] الرحيق المختوم: المباركفوري :48-49
[19] - المرجع نفسه:58-59

[20] ينظر:ابن هشام: 1-159 فما بعدها، تاريخ الطبري 2-156 فما بعدها ، طبقات ابن سعد: 1-102 فمابعدها، مروج الذهب:المسعودي 2-281

به على النبي صلى الله عليه وسلم لاتضاح نسبه بينهم، ولقد طعنت فيه بأشياء كثيرة مفتراة إلا هذا الأمر.

2 – أنه نشأ يتيما، فقد مات أبوه عبد الله وأمه حامل به لشهرين فحسب، ولما أصبح له من العمر ست سنوات ماتت أمه آمنة فذاق صلى الله عليه وسلم في صغره مرارة الحرمان من عطف الأبوين وحنانهما، وقد كفله بعد ذلك جده عبد المطلب، ثم توفي ورسول الله صلى الله عليه وسلم ابن ثمان سنوات، فكفله بعد ذلك عمه أبو طالب حتى نشأ واشتد ساعده،

3 – أمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم السنوات الأربع الأولى من طفولته في الصحراء في بني سعد، فنشأ قوي البنية، سليم الجسم، فصيح اللسان، جريء الجنان، يحسن ركوب الخيل على صغر سنه قد تفتحت مواهبه على صفاء الصحراء وهدوئها، وإشراق شمسها ونقاوة هوائها.
4 – كانت تعرف فيه النجابة من صغره، وتلوح على محياه مخايل الذكاء الذي يحببه إلى كل من رآه، فكان إذا أتى الرسول وهو غلام جلس على فراش جده، وكان إذا جلس عليه لا يجلس معه على الفراش أحد من أولاده (أعمام الرسول)، فيحاول أعمامه انتزاعه عن الفراش، فيقول لهم عبد المطلب: دعوا ابني، فو الله إن له لشأنا.

5 – أنه عليه الصلاة والسلام كان يرعى في أوائل شبابه لأهل مكة أغنامهم بقراريط يأخذها أجرا على ذلك، وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما من نبي إلا قد رعى الغنم» قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «وأنا» وفي رواية أخرى أنه قال: «ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم» فقال له أصحابه: وأنت يا رسول الله؟ فأجاب: «وأنا رعيتها لأهل مكة على قراريط» ثم لما بلغ من عمره خمسا وعشرين، عمل لخديجة بنت خويلد في التجارة بما لها على أجر تؤديه إليه.
6 – لم يشارك عليه الصلاة والسلام أقرانه من شباب مكة في لهوهم ولا عبثهم، وقد عصمه الله من ذلك، فقد استفاض في كتب السيرة أنه سمع وهو في سن الشباب غناء من إحدى دور مكة في حفلة عرس، فأراد أن يشهدها، فألقى الله عليه النوم، فما أيقظه إلا حر الشمس، ولم يشارك قومه في عبادة الأوثان، ولا أكل شيئا مما ذبح لها، ولم يشرب خمرا، ولا لعب قمارا، ولا عرف عنه فحش في القول، أو هُجر [قبحٌ] في الكلام.

7 – وعرف عنه منذ إدراكه رجحان العقل، وأصالة الرأي، وفي حادثة وضع الحجر الأسود في مكانه من الكعبة دليل واضح على هذا، فقد أصاب الكعبة سيل أدى إلى تصدع جدرانها، فقرر

أهل مكة هدمها وتجديد بنائها، وفعلوا، فلما وصلوا إلى مكان الحجر الأسود فيها اختلفوا اختلافا شديدا فيمن يكون له شرف وضع الحجر الأسود في مكانه، وأرادت كل قبيلة أن يكون لها هذا الشرف، واشتد النزاع حتى تواعدوا للقتال، ثم ارتضوا أن يحكم بينهم أول داخل من باب بني شيبة، فكان هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، رضينا بحكمه، فلما أخبر بذلك، حل المشكلة بما رضي عنه جميع المتنازعين، فقد بسط رداءه ثم أخذ الحجر فوضعه فيه، ثم أمرهم أن تأخذ كل قبيلة بطرف من الرداء، فلما رفعوه وبلغ الحجر موضعه، أخذه ووضعه بيده، فرضوا جميعا، وصان الله بوفور عقله وحكمته دماء العرب من أن تسفك إلى مدى لا يعلمه إلا الله.

8 – عرف عليه الصلاة والسلام في شبابه بين قومه بالصادق الأمين، واشتهر بينهم بحسن المعاملة، والوفاء بالوعد، واستقامة السيرة، وحسن السمعة، مما رغب خديجة في أن تعرض عليه الاتجار بمالها في القافلة التي تذهب إلى مدينة (بصرى) كل عام على أن تعطيه ضعف ما تعطي رجلا من قومها، فلما عاد إلى مكة وأخبرها غلامها ميسرة بما كان من أمانته وإخلاصه، ورأت الربح الكثير في تلك الرحلة، أضعفت له من الأجر ضعف ما كانت أسمت له، ثم حملها ذلك على أن ترغب في الزواج منه، فقبل أن يتزوجها وهو أصغر منها بخمسة عشر عاما، وأفضل شهادة له بحسن خلقه قبل النبوة قول خديجة له بعد أن جاءه الوحي في غار حراء وعاد مرتعدا: كلا والله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل (الضعيف)، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

9 – سافر مرتين خارج مكة، أولاهما مع عمه أبي طالب حين كان عمره اثنتي عشرة سنة، وثانيتهما حين كان عمره خمسا وعشرين سنة، متاجرا لخديجة بمالها، وكانت كلتا الرحلتين إلى مدينة (بصرى) في الشام، وفي كلتيهما كان يسمع من التجار أحاديثهم، ويشاهد آثار البلاد التي مر بها، والعادات التي كان عليها سكانها.

10 – حبب الله إليه عليه الصلاة والسلام قبل البعثة بسنوات أن يخرج إلى غار حراء – وهو جبل يقع في الجانب الشمالي الغربي من مكة، على قرب منها– يخلو فيه لنفسه مقدار شهر – وكان في شهر رمضان– ليفكر في آلاء الله، وعظيم قدرته، واستمر على ذلك حتى جاءه الوحي، ونزل عليه القرآن الكريم.

الدروس والعظات :

يستطيع الباحث أن يخرج من دراسة الوقائع السالفة بالدروس والنتائج التالية :[21]

1 – أنه كلما كان الداعية إلى الله، أو المصلح الاجتماعي في شرف من قومه، كان ذلك أدعى إلى استماع الناس له، فإن من عادتهم أن يزدروا بالمصلحين والدعاة إذا كانوا من بيئة مغمورة، أو نسب وضيع، فإذا جاءهم من لا ينكرون شرف نسبه، ولا مكانة أسرته الاجتماعية بينهم، لم يجدوا ما يقولونه عنه إلا افتراءات يتحللون بها من الاستماع إلى دعوته، والإصغاء إلى كلامه، ولذلك كان أول ما سأل عنه هرقل أبا سفيان بعد أن أرسل الرسول إلى هرقل كتابا يدعوه فيه إلى الإسلام هو وقومه: كيف نسبه فيكم؟ فأجاب أبو سفيان وهو يومئذ على شركه: هو من أشرفنا نسبا، ولما انتهى هرقل من أسئلته لأبي سفيان، وسمع جوابه عنها، أخذ يشرح له سر الأسئلة التي توجه بها إليه حول محمد «رسول الله صلى الله عليه وسلم» فقال له هرقل: سألتك كيف نسبه فيكم؟ فزعمت أنه من أشرفكم نسبا، وكذلك لا يختار الله النبي إلا من كرام قومه، وأوسطهم نسبا. صحيح أن الإسلام لا يقيم وزنا لشرف الأنساب تجاه الأعمال، ولكن هذا لا يمنع أن يكون الذي يجمع بين شرف النسب وشرف الفعل، أكرم وأعلى مكانا وأقرب نجاحا، كما قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: «خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا».

2 – أن في تحمل الداعية آلام اليتم أو العيش، وهو في صغره ما يجعله أكثر إحساسا بالمعاني الإنسانية النبيلة، وامتلاءً بالعواطف الرحيمة نحو اليتامى أو الفقراء أو المعذبين، وأكثر عملا لإنصاف هذه الفئات والبر بها والرحمة لها، وكل داعية يحتاج لأن يكون لديه رصيد كبير من العواطف الإنسانية النبيلة التي تجعله يشعر بآلام الضعفاء والبائسين، ولا يوفر له هذا الرصيدَ شيءٌ مثلُ أن يعاني في حياته بعض ما يعانيه أولئك المستضعفون كاليتامى والفقراء والمساكين.

3 – كلما عاش الداعية في جو أقرب إلى الفطرة، وأبعد عن الحياة المعقدة، كان ذلك أدعى إلى صفاء ذهنه، وقوة عقله وجسمه ونفسه، وسلامة منطقه وتفكيره، ولذلك لم يختر الله العرب لأداء رسالة صدفة ولا عبثا، بل لأنهم كانوا بالنسبة إلى من يجاورهم من الأمم المتمدنة أصفى نفوسا، وأسلم تفكيرا، وأقوم أخلاقا، وأكثر احتمالا لمكاره الحروب في سبيل دعوة الله ونشر رسالته في أنحاء العالم.

[21] -ينظر: السيرة النبوية دروس وعبر ، مصطفى السباعي ص 48.، فقه السيرة: البوطي ص60 -61-64-65، الرحيق المختوم: 80-81

4 – لا يتأهل لمركز الدعوة وقيادتها إلا الذكي النبيه، فالأغبياء والمتوسطون في نجابتهم أبعد الناس عن جدارة القيادة الفكرية، أو الإصلاحية، أو الروحية، بل إن من سنن الحياة ألا يتمكن من القيادة في أي ناحية من نواحي الحياة عن جدارة واستحقاق الأغبياء والمضطربون في تفكيرهم، والشاذون في آرائهم، وإذا واتت الصدفة أو الظروف واحدا من هؤلاء، فحملته إلى مركز القيادة، فسرعان ما يهوي إلى الحضيض ويتخلى عنه قومه بعد أن تدلهم أفعاله على غباوته، أو شذوذه، أو اضطراب تفكيره.

5 – ينبغي للداعية أن يعتمد في معيشته على جهده الشخصي، أو مورد شريف لا استجداء فيه، ولا ذلة ولا مهانة.

إن الدعاة الصادقين الشرفاء يربؤون بأنفسهم أن يعيشوا من صدقات الناس وأعطياتهم، وأية كرامة تكون لهم في نفوس قومهم بعد أن يهينوا أنفسهم بذل السؤال والاستجداء ولو لم يكن صريحا مكشوفا. فإذا وجدنا من يدعي الدعوة والإرشاد، وهو يستكثر من أموال الناس بشتى أنواع الحيل، فإننا نجزم بمهانة نفسه في نفسه، فكيف في نفوس قومه وجيرانه؟ ومن ارتضى لنفسه المهانة، فكيف يستطيع أن يدعو إلى مكارم الأخلاق، ويقف في وجه الطغاة والمفسدين، ويحارب الشر والفساد، ويبعث في الأمة روح الكرامة والشرف والاستقامة؟

6 – إن استقامة الداعية في شبابه وحسن سيرته أدعى إلى نجاحه في دعوته إلى الله، وإصلاح الأخلاق، ومحاربة المنكرات، إذ لا يجد في الناس من يغمزه في سلوكه الشخصي قبل قيامه بالدعوة، وكثيرا ما رأينا أناسا قاموا بدعوة الإصلاح، وبخاصة إصلاح الأخلاق، وكان من أكبر العوامل في إعراض الناس عنهم ما يذكرونه لهم من ماض ملوث، وخلق غير مستقيم، بل إن الماضي السيء يكون مدعاة للشك في صدق هؤلاء الدعاة، بحيث يتهمون بالتستر وراء دعوة الإصلاح لمآرب خاصة، أو يتهمون أنهم ما بدؤوا بالدعوة إلى الإصلاح إلا بعد أن قضوا لُبانتهم [حاجتهم] من ملذات الحياة وشهواتها، وأصبحوا في وضع أو عمر لا أمل لهم فيه بالاستمرار فيما كانوا يبلغون فيه من عرض أو مال أو شهرة أو جاه.

أما الداعية المستقيم في شبابه، فإنه يظل أبدا رافع الرأس ناصع الجبين، لا يجد أعداء الإصلاح سبيلا إلى غمزه بماض قريب أو بعيد، ولا يتخذون من هذا الماضي المنحرف تكأة للتشهير به، ودعوة الناس إلى الاستخفاف بشأنه.

نعم إن الله يقبل توبة التائب المقبل عليه بصدق وإخلاص، ويمحو بحسناته الحاضرة سيئاته المنصرمة، ولكن هذا شيء غير الداعية الذي ينتظر لدعوته النجاح إذا استقامت سيرته وحسنت

سمعته.

7 – إن تجارب الداعية بالسفر، ومعاشرة الجماهير، والتعرف على عوائد الناس وأوضاعهم ومشكلاتهم، لها أثر كبير في نجاح دعوته، فالذين يخالطون الناس في الكتب والمقالات دون أن يختلطوا بهم على مختلف اتجاهاتهم، قوم مخفقون في دعوة الإصلاح، لا يستمع الناس إليهم، ولا تستجيب العقول لدعوتهم، لما يرى فيهم الناس من جهل بأوضاعهم ومشكلاتهم، فمن أراد أن يصلح المتدينين عليه أن يعيش معهم في مساجدهم، ومجالسهم، ومجتمعاتهم، ومن أراد أن يصلح حال العمال والفلاحين، عليه أن يعيش معهم في قراهم، ومصانعهم، ويؤاكلهم في بيوتهم، ويتحدث إليهم في مجتمعاتهم، ومن أراد أن يصلح المعاملات الجارية بين الناس، عليه أن يختلط بهم في أسواقهم، ومتاجرهم، ومصانعهم، وأنديتهم، ومجالسهم، ومن أراد أن يصلح الأوضاع السياسية، عليه أن يختلط بالسياسيين، ويتعرف إلى تنظيماتهم، ويستمع لخطبهم، ويقرأ لهم برامجهم وأحزابهم، ثم يتعرف إلى البيئة التي يعيشون فيها، والثقافة التي نهلوا من معينها، والاتجاه الذي يندفعون نحوه، ليعرف كيف يخاطبهم بما لا تنفر منه نفوسهم، وكيف يسلك في إصلاحه معهم بما لا يدعوهم إلى محاربته عن كره نفسي، واندفاع عاطفي.

وهكذا يجب أن يكون للداعية من تجاربه في الحياة، ومعرفته بشؤون الناس، ما يمكنه من أن يحقق قول الله تعالى:﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ ﴾[22] وما أبدع القول المأثور: خاطبوا الناس على قدر عقولهم؛ أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟

8 – يجب على الداعية إلى الله أن تكون له بين الفينة والفينة أوقات يخلو فيها بنفسه، تتصل فيها روحه بالله جل شأنه، وتصفو فيها نفسه من كدورات الأخلاق الذميمة، والحياة المضطربة من حوله، ومثل هذه الخلوات تدعوه إلى محاسبة نفسه إن قصرت في خير، أو زلت في اتجاه، أو جانبت سبيل الحكمة، أو أخطأت في سبيل ومنهج أو طريق، أو انغمست مع الناس في الجدال والنقاش حتى أنسته ذكر الله والأنس به وتذكر الآخرة، وجنتها ونارها، والموت وغصصه وآلامه، ولذلك كان التهجد وقيام الليل فرضا في حق النبي صلى الله عليه وسلم، مستحبا في حق غيره، وأحق الناس بالحرص على هذه النافلة هم الدعاة إلى الله وشريعته وجنته، وللخلوة والتهجد والقيام لله بالعبودية في أعقاب الليل لذة لا يدركها إلا من أكرمه الله بها، وقد كان إبراهيم بن أدهم رحمه الله يقول في أعقاب تهجده وعبادته: نحن في لذة لو عرفها الملوك لقاتلونا عليها.

وحسبنا قول الله تبارك وتعالى مخاطبا رسول الله صلى الله عليه وسلم:يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا

[22] النحل: 125

قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ ﴾ [23] .

23المزمل: 1 - 7